تقاعُد غير مريح

أميمة عزّ الدين ❖

خرج من السجن. تمطّى قليلاً. تلفّتَ حوله، باسطًا كفّه على وجهه اتّقاءَ أشعّة الشمس الحارقة. تمخّط وبصق على الأرض. بادله حارسُ السجن بصقةً أشدّ، كادت أن تبلغ وجهه.

انحنى ظهرُه وتقوّس. الكراهية تعلو كلَّ شيء: الأرض والدوابّ والشجر؛ حتى نظرات المارة، يُطلّ منها كرهٌ واحتقار. ربما عرفوا حكايته القديمة التي لا تزال عالقة. لن يتبرّأ منها أو يتوارى خجلًا خلف حجاب. لا أحد يستطيع الهرب من قدره.

حينما أصدرتْ محكمةُ أمن الدولة العليا حكمًا بسجنه عشرين عامًا لتورّطه في التجسّس لصالح دولةٍ معادية، أحسّ ألمًا غريبًا يغتال صدره. أخذوه مقيّدًا بالسلاسل ككلبٍ أجرب، حتى كاد أن ينكفئ على وجهه في سجن أبو زعبل. وحين ضمّته جدرانُ الزنزانة رقم ٢١٣ هاجمه ثلاثة أشخاص بشراسة حين عرفوا تهمته، فضربوه حتى سالت الدماء من أنفه وبقيّة فتحاته.

عشرون عامًا بالتمام والكمال عاشها منبوذًا، يأكل ويشرب ويسير بمفرده، لا يصاحبه غيرُ ظلّه وغيرُ تهمته التي لم يشعر يومًا تجاهها بتأنيب الضمير. أولع منذ أن كان صغيرًا بالتنصّت إلى الجيران. يقضي أيّامًا في تتبّعهم حتى يعرف سرّهم. لم يجنّده أحد كي يكون جاسوسًا، بل ذهب بنفسه إلى سفارة تلك الدولة وطلب مقابلةَ سفيرها لأمرٍ مهمّ، وظلّ يروح ويجيء شهورًا طويلة حتى سمح له القنصلُ بمقابلته على مضض.

اختلى بالقنصل، وهمس له قائلاً: «لديّ معلومات خطيرة تفيد بلدكم.» ثم أخرج مفكّرةً كبيرةً تضمّ كنوزًا من المعلومات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والعسكريّة. ارتبك القنصل؛ فهو يخشى أن يكون ذلك فخًّا يتسبّب في طرده وطرد سفيره، وإغلاق سفارته في القاهرة. قرأ «رجائي» أفكار القنصل وقال مطمْئنًا: «لا تخشَ شيئًا، جرّبني.»

وبعد شدّ وجذبٍ واختباراتٍ قاسية، تمّ تكليفُه جاسوسًا، براتب شهريّ، والتشديد عليه بألاّ ينفق ببذخ حتى لا يَلفت الأنظارَ إليه، والاحتفاظ بمسكنه القديم، والالتزام بعاداته وعمله في وزارة الماليّة. لكنّ، بعد خمس سنوات، قُبض عليه وحُكم عليه سريعًا لثبوت الأدلّة الدامغة؛ حتى إنّ محاميه لم يحضرْ جلسة النطق بالحكم.

❖ ❖ ❖

حين عاد إلى مسكنه بالمنيرة، وجد الناسَ تلفظ وجوده. فاضطرّ إلى الرحيل وقلبُه معلّقٌ بالمكان الذي وُلد فيه ومارس أولى نزواته في التجسّس على الجيران. واستقرّ في مكان بعيد، وقال لنفسه: «لقد حان وقتُ التقاعد.»

حاول أن يستمتع بالأيام المتبقّية من عمره بمراقبةِ ما يحدث من حوله. شكّل من الشرفة موقعًا استراتيجيًّا لمراقبة حركة الجيران. وفي الليل، عندما ينشب شجارٌ أو يعلو صراخٌ أو تتسلّل همسات، كان يلصق أذنَه إلى الجدار.

لم يجد ما يشغل وقتَه غيرَ كتابة تقارير، منه وإليه، أسماها «تقارير سريّة عن سلوك الجيران الجدد وحركتهم.» وعلى الرغم من عدم اختلاطه بهم، ونفورهم منه، فقد استطاع أن يجمع معلوماتٍ لا بأس بها وتعامل مع الأمر بجديّةٍ تامّة.

لما شعر بالإنهاك، وخفت بصرُه، ولم تعد النظّارة تساعده على الكتابة، شعر بالرثاء لحاله، وقال في استنكار لا يخلو من المرارة والمهانة: «يا له من تقاعدٍ غير مريح!»

القاهرة

❖ كاتبة من مصر.